الفاتح من سبتمبر 1961

وتحولت شرارة الكفاح المسلح الى بركان جامح ـ كاسح

بقلم: د.احمد حسن دحلي

كل شرارة تحمل بذور ومقومات وجذور تحول الى حريق، ولكنها لا تتحول بالضرورة الى بركان يكتسح جحافل اقوى جيش افريقي مدعوم على التوالي من القوتين العظمتين، أي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي السابق وتوابعهما من الدول الغربية والشرقية في حرب وجودية استخدمت فيها كل أنواع الأسلحة المعاصرة، بما فيها الأسلحة المحرمة دوليا، برا وبحرا وجوا لإطفاء شرارة الثورة الارترية. ولكن ولمفاجأة العديد من المراقبين الذين كانوا يراهنون على خمود وافول تلك الشرارة بحديثهم تارة عن " الثورة المنسية " وطورا عن " الثورة الخاسرة "، غدت جذوة تلك الشرارة تتأجج وتزداد جذوة كلما واجهت تحديات كبيرة وجديدة تهدد وجودها. فما هو السر وراء ذلك؟ في حقيقة الامر لا يوجد سر، وانما حقيقة تاريخية لم تأخذ في الحسبان، وهذه الحقيقة عبر عنها المناضل الشهيد حامد ادريس عواتي ذات ليلة حاصره برفقة كوكبة من الرعيل الأول الذين لا يتجاوز عددهم اسابع اليدين، برد قارص وشديد، فاشعل النار وطلب من المناضلين الالتفاف حو النار لحمايتها من الهواء الذين كان يهدد بإخمادها. فأغتنم تلك الفرصة والمشهد، وقدم لهم درسا قيما متعدد الابعاد، عندما قال لهم بصورة موجزة وبليغة ومعبرة، ان الثورة الارترية هي مثل هذه الشعلة، علينا ان نتوحد ونلتف حولها ونصونها من كيد الأعداء الى ان تثبت اركانها. هذا الحديث لحامد عواتي نقله لي رهط من الرعيل الأول جمعني واياهم لقاء فريد

ومفيد في فندق الخرطوم باسمرا، وذلك بعد أيام معدودة من سريان الاستفتاء في عام 1993، وإعلان ارتريا دولة مستقلة ذات سيادة.

من بديهيات الأمور ومسلماتها، ان كل شعلة لا يمكن ان تتحول الى بركان، كما ان كل بذرة لا يمكن ان تكون سنبلة، رغم وجود المقومات على ذلك، وان العديد من الفلاسفة مثل هيرقليطس 500 سنة قبل الميلاد أو ارسطو 300 سنة قبل الميلاد ايضا، وغيرهما تناولوا هذا الجدلية بعمق تشكل نظرية فلسفية كاملة، وهذه قضية اخرى.

وان الاشكالية التي نحن بصددها هي كيف ان شرارة الفاتح من سبتمبر التي بدأت بحفنة مناضلين مسلحين بقوة الايمان بعدالة قضيتهم، وبعزيمة لا تنحسر، وإرادة لا تنكسر، اصبحت ثورة مسلحة بجميع اشكال الدعم شعبي، وبقوات صانعة البطولات والمعجزات العسكرية، وبمعدات عسكرية تشمل المدافع الصاروخية ـ اورغن ستالين ـ ، ومختلف أنواع الدبابات والمدرعات والبرمائيات ، والمدافع الثقيلة، وقوات بحرية وكتائب والوية ، ووحدات هندسية، وفرقة فدائية، ووحدات عسكرية تعمل خلف خطوط العدو، وشعبة استخباراتية عسكرية وامنية، وإذاعة ومنظمات جماهيرية، وأجهزة سياسية وعسكرية واقتصادية وصحية وتعليمية...الخ وان الشعب لم يلتف حولها وحسب بل التحم بها، هذا ما اقر به العدو قبل الصديق. فلقد قال رأس النظام الاقطاعي الاثيوبي هيلي سلاسي " لا بد من تجفيف البحر لقتل السمك "، أي لا بد من إبادة الشعب الارتري من خلال تطبيق سياسة الأرض المحروقة للقضاء على الثوار الارتريين. وما يهمنا في هذا الصدد هو ان التحام الثورة والشعب، خلق ديناميكية جديدة وفعالة، استطاعت أن تعكس موازين القوة، وتقلب كل الحسابات العسكرية الكلاسيكية راسا على عقب، هذا مما أهل الثورة أن تحرر القرى والمدن، وتجتث الاستعمار الاثيوبي مرة واحدة والى الابد من أعمق اعماق جذوره، وترفع في خاتمة المطاف، راية الاستقلال بعد شعلة الثورة.

والسؤال الذي يطرح ذاته هو طبيعة الأرضية التي انطلقت منها تلك الشرارة الثورية قبل 64 سنة بالتمام والكمال. في واقع الامر، إن طبيعة تلك الأرضية مركبة وذات ابعاد تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية تعود جذورها الى عهد الاستعمار الإيطالي الذي عين حدود ارتريا الدولية مع كل من السودان واثيوبيا وجيبوتي في نهاية القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين بصورة أساسية من ناحية، ومن ناحية أخرى ادخل المستعمر الإيطالي نظاما اقتصاديا

شبه رأسمالي على انقاض نظام شبه اقطاعي، وشيد سبل المواصلات والاتصالات، وعبد الطرق، ومارس ابغض انواع العنصرية، وجند مئات الالاف من الشباب من جميع انحاء ارتريا وزج بهم في كل حروبه الاستعمارية ضد اثيوبيا وليبيا والصومال، وضد جيش الحلفاء في الحرب الكونية الثانية التي انتهت بهزيمة إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية. حصيلة هذه العملية التاريخية التي امتدت على مدى نصف قرن ونيف 1890 - 1941، ارست اللبنة الاساسية لمسيرة الهوية الارترية التي تشكلت من تسعة جداول او شئت فقل فئات اجتماعية لتحدد الملاحم الرئيسية لنهر الهوية الارترية، اي تعددية في إطار الوحدة الوطنية. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الشعب الارتري يتوقع ويأمل ان يمارس حق تقرير المصير بناء على وعد بريطانيا له إذا ما تخلى الارتريون وجنودهم عن القوات الايطالية التي كانت تحارب جيش الحلفاء في ارتريا معقل القوات الايطالية في شرق افريقيا. ولكن الادارة البريطانية التي بسطت نفوذها في ارتريا بعد هزيمة إيطاليا، خانت عهدها، وغدت تخطط للحيلولة دون حصول الشعب الارتري على استقلاله. فغدت تخلق حالة من الفوضى السياسية، وتتخذ إجراءات من شأنها أن تزعزع امن وسلامة واستقرار البلد من خلال عصابات ارهابية بالتنسيق مع الحكومة الاثيوبية، لكي تزعم بأن البلاد لا توجد بينها قواسم مشتركة فيما بينها، ولا تعرف الاستقرار، ولا يمكن تركها لوحدها، وشرعت في تدمير اقتصاد ارتريا، فأغلقت في عام 1948 فقط 637 شركة ، ودمرت البنية الاقتصادية للبلاد، وهدمت العمران، وباعت معدات واليات المرافق الاقتصادية بغية تعزيز ادعائها الزائف والمزيف بشأن عدم تمتع ارتريا بمؤهلات اقتصادية تسمح لها ان تكون دولة مستقلة، وذلك لتقسيم ارتريا بين اثيوبيا والسودان على اساس مشروع بريطاني ـ ايطالي اعده في عام 1949 وزير خارجية بريطانيا ارنست بيفن ونظيره الايطالي كارلو سفوروزا، ولكن اجهض ذلك المشروع في مهده من قبل الارتريين الذين تصدوا لمشروع التقسيم، والحوا على ممارسة حقهم الشرعي والمشروع في تقرير المصير على غرار بقية مستعمرات إيطاليا في القارة الافريقية، وتحديدا في ليبيا والصومال. ففي وسط هذه الأجواء السياسية الملوثة طرح مشروع مستقبل ارتريا في الأمم المتحدة التي شكلت وفدا لزيارة ارتريا بغية الوقوف على إرادة الشعب الارتري، ولم يتوصل الوفد الاممي الى رأي موحد. فأستغلت الإدارة الامريكية في عهد الرئيس هاري ترومان بالتنسيق مع رئيس وزراء بريطانيا ونستوت تشرشل، والشقيقين جون فوستر دالاس ـ وزير الخارجية، آلن دالاس ـ رئيس وكالة

الاستخبارات المركزية الامريكية ـ السي أي ـ أي ـ ومستشار هيلي سلاسي الأمريكي جون سبنسر، ونزلت الإدارة الامريكية بكل وزنها السياسي والعسكري والاقتصادي في الحلبة، ودفعت بمشروع اتحاد فيدرالي بين ارتريا واثيوبيا يكون بمثابة حل وسط بين التقسيم والاستقلال، بحجة ان استقلال ارتريا لا يخدم المصالح الاستراتيجية الامريكية في القرن الافريقي خاصة وفي حوض البحر الأحمر عامة، وان اثيوبيا تخدم حقا المصالح الاستراتيجية الامريكية. وهكذا تم تمرير قرار الاتحاد الفيدرالي بين ارتريا واثيوبيا في عام 1950، ودخل حيز التنفيذ في عام 1952.

ابراهيم سلطان ولدي آب ولدي ماريام عبد القادر كبيري

هذه المؤامرة التاريخية السياسية الكبرى ضد حق الشعب الارتري في تقرير المصير، وتلك السياسية التخريبية والتدميرية البريطانية في ارتريا، شكلت تحديات وجودية للقوى الوطنية الارترية التي سعت بدورها الى تعزيز وحدة صفها، والى رفع مستوى الوعي السياسي للمواطنين بالسبل القليلة المتاحة، لحفظ على ما يمكن الحفاظ عليه، تحت شعار " لا نفترق " وذلك بغية مواجهة التحديات المستقبلية القادمة بصورة موحدة. وكانت القوى الوطنية الارترية تعي جيدا بأن الاتحاد الفيدرالي ليس نهاية المطاف، بقدر ما هو يشكل مرحلة سياسية جديدة في تاريخ الشعب الارتري. علما ان القوى الوطنية الارترية لم تكن لوحدها في الساحة قبل وبعد اعتماد قرار الاتحاد الفيدرالي بين البلدين تحت غطاء الأمم المتحدة، بل كانت هناك ثمة قوى غير وطنية تلهث خلف مصالحها الضيقة على أنقاض المصلحة الوطنية للشعب الارتري. ولم تتوانى الحكومة الاثيوبية في استغلال تلك العناصر غير الوطنية في محاربة وتضييق الخناق على القيادات الوطنية الارترية من جهة، وبغية تمرير سياستها الرامية الى ضم ارتريا نهائيا الى اثيوبيا من جهة أخرى. وعندما مرت مؤامرة الاتحاد الفيدرالي، عمدت

الحكومة الاثيوبية على تولي تدلا بايرو رئاسة الحكومة الارترية لكونه، كان سكرتيرا لحزب الوحدة، ومن أبرز الشخصيات الارترية المطالبة بالوحدة مع اثيوبيا، ومن اشد أعداء القيادات الوطنية الارترية وفي مقدمتها ولدي آب ولدي ماريام الذي تعرض لسبع محاولات اغتيال بسبب موقف المبدئي المناوئ للفيدرالية مع اثيوبيا والمطالب بإستقلال ارتريا مع بقية القيادات الوطنية الارترية مثل إبراهيم سلطان علي وعبد القادر كبيري الذي اغتيل غدرا في عام 1949 في محاولة يائسة من السلطات الاثيوبية وعملائها من الارتريين، للحيلولة دون اسماع صوت الشعب الارتري للعالم من منبر الأمم المتحدة، بصفته ممثلا للقوى الوطنية وقياداتها التي خاضت معارك سياسية بطولية في مرحلة شائكة وحالكة من تاريخ ارتريا، ولكنها شكلت في نفس الوقت منعطفا جديدا وخطيرا وصعبا وبالغ التعقيد، ولكنه، وفي المحصلة النهائية، كما سنرى شق المجرى التاريخي والسياسي والعسكري نحو الحرية والاستقلال.

تدلا بايرو اسفها ولدي ميكئيل

فبعد فترة وجيزة من دخول الاتحاد الفيدرالي حيز التنفيذ، غدت الحكومة الاثيوبية تتخذ إجراءات تقليص سلطة الحكومة الارترية، وتعزيز سيطرتها على مقاليد الحكم في ارتريا على أنقاض روح ونص الاتحاد الفيدرالي، هذا مما اثار ثائرة القوى الوطنية الارترية التي بذلت قصارى جهدها لمقاومة السياسة الاثيوبية وللحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من الاتحاد الفيدرالي بخصوص وجود كيان ارتري قائم بذاته في سياق اتحاد فيدرالي مع اثيوبيا، وليس جزئا لا يتجزأ منها. وبعد مضي ثلاث سنوات فقط على عمر الاتحاد الفيدرالي أي في عام 1955 أدرك تدلا بيرو بأن اثيوبيا استخدمته، وان دوره قد انتهى، ولا بد أن تأتي شخصية سياسية ارترية غير وطنية تطيع الأوامر وتنفذها من دون نقاش او مساءلة، فعينت اسفها ولدي ميكائيل بدلا منه، لكي يلعب ما تبقى من الأدوار السياسية الديكورية القذرة، لغاية ما تم في عام 1962 ضم ارتريا نهائيا الى

اثيوبيا. والمهم في الامر هنا، وفي خلال عقد ونيف من عمر الاتحاد الفيدرالي، بدأ الوعي الوطني الارتري يتبلور، وتجسد ذلك في إضرابات الحركة العمالية الارترية في اسمرا ومصوع وعصب، وفي تخلي ليس العديد من قواعد حزب الوحدة مع اثيوبيا، وانما قادته أيضا، وبدأت عملية الالتحاق بالقوى الوطنية الارترية، نذكر منهم سكرتير حزب الوحدة وأول رئيس الحكومة الارترية الفيدرالية تدلا بيرو الذي غادر ارتريا في عام 1967 والتحق بجبهة تحرير ارتريا، وانضم الى صف الوطني الذي يوجد فيه ولد آب ولدي ماريام الذي كان يكن له كل العداء بسبب مواقفه الوطنية وتصديه للسياسات والمؤامرات الاثيوبية ضد ارتريا بلدا وشعبا، وان في ذلك اكثر درس ودلالة.

وهكذا اختمرت الظروف الموضوعية لميلاد تنظيم سياسي يؤطر مقاومة الشعب الارتري، فولدت حركة تحرير ارتريا في 1958 بقيادة الزعيم الوطني محمد سعيد ناود، وجسدت بحق وحقيقة تلك المرحلة المفصلية في تاريخ ارتريا الحديث، حينما قامت بتنظيم الارتريين في عموم ارجاء الوطن وفي بلدان المهجر في خلايا سباعية، ولكنها ولأسباب موضوعية وذاتية لم تستطع مواكبة الغليان الشعبي الناجم عن الظروف السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية، بحكم ان قيادة حركة التحرير كانت بعيدة عن الساحة الوطنية، وان متابعتها لتطورات الاحداث الظاهرة والباطنة لم تكن الا عبر التقارير التي ترفع اليها، هذا مما جعلها تتأخر في قراءة وتحليل واقع البلاد أولا بأول، واستحوذت على ذهنها بصورة اساسية فكرة التخطيط للقيام بإنقلاب عسكري من خلال الجنود الارتريين المنضوين تحت لوائها والعاملين ضمن ما تبقى من النظام الفيدرالي المتهاوي. ففي ظل هذه التطورات المتسارعة في الساحة الارترية، التفت بعض الشخصيات الارترية حول رئيس البرلمان الارتري السابق ادريس محمد آدم في مصر، وتم في عام 1960 تأسيس جبهة تحرير ارتريا في مصر، لكي تعبر وتجسد ما كان يختلج في صدور وقلوب وافئدة ونفوس وعقول الارتريين بضرورة مقارعة الحديد بالحديد والنار بالنار. وبعد عام ونيف، وتحديدا في الفاتح من سبتمبر 1961، أنطلقت شرارة الثورة الارترية المسلحة بقيادة الشهيد حامد ادريس عواتي وكوكبة من رفاقه، معلنة نهاية مرحلة تاريخية بكل ايجابياتها وسلبياتها، وبداية مرحلة كفاح عسكري تشكل العمود الفقري للنضال السياسي الرامي لتحقيق حق الشعب الارتري في تقرير المصير، وفي الحياة الحرة والمستقلة. ورغم كل مواطن خللها البنيوي، وبعض ممارساتها قياداتها السياسية

والعسكرية الخاطئة التي شابت التجربة النضالية السياسية والعسكرية الارترية في عقدها الاول، استطاعت شرارة الثورة الارترية ان تشعل هشيم المجتمع الارتري وتفجر لهيبه، وتهز اقدام السلطة الاقطاعية الاستعمارية الاثيوبية التي بادرت بطلب نجدة من الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل.

ولكن هيات، فالثورة الارترية لم تتراجع قيد أنملة، حتى في أحلك الظروف، أي عندما بدأت الحكومة الاثيوبية في ممارسة سياسة الأرض المحروقة في ارتريا، والتي تمثلت في إبادة المواطنين، واحراق القرى، وقتل المواشي، وتسميم آبار المياه ...الخ. وعلى خلاف ما توقعت القيادة السياسية الاثيوبية ان سياسة الأرض المحروقة، لعبت دورا حاسما في تأليب جزء كبير من الشعب الارتري الذي لم يكن يتفاعل ويتجاوب مع الثورة الارترية، ضد النظام الاثيوبي، وترتب على ذلك تزايد عدد الشباب الملتحقين بصفوف الثورة، كما ضاعف عدد الذين كانوا يناضلون داخل المدن الارترية، بل وفي اثيوبيا ذاتها أيضا. جميع هذه العوامل ساهمت في ان تشق الثورة الارترية مجرى جديدا للتاريخ برغم كل العوائق الذاتية والموضوعية، فولدت حركة اصلاح مسار ومسيرة الثورة في عام 1967، وتوحدت ثلاث مناطق ـ المنطقة الثالثة والرابعة والخامسة ـ في مؤتمر عنسبا في عام 1968، وعقد مؤتمر ادوبحا في عام 1969 لتحقيق الوحدة الشاملة لكل المناطق العسكرية الارترية الخمس، ولكن الحسابات غير الوطنية طغت على القيادات السياسية والعسكرية، ودخلت الثورة الارترية في ازمة جوهرية، توجت بميلاد قوات التحرير الشعبية في عام 1970 بسدوحا عيلا، ورفعت شعار تحرير الانسان والأرض، وتولت رفع مشعل الثورة بتوجه جديد. وان مسيرتها العسكرية والسياسية لم تكن سهلة على الاطلاق، بل كانت محفوفة بتناقضات ثانوية في داخل اجنحتها الثلاثة وبين اجنحتها ذاتها التي كانت حبلى بسلبيات المرحلة السابقة، ولكنها تجاوزت كل تلك العقبات، وتخطت معظم الصعوبات، وتصدت لحملات التصفية التي تعرضت لها من قبل جبهة تحرير ارتريا، قبل ان تستطيع أن توحد صفوفها، وترسم خطها السياسي، وتضع استراتيجيتها العسكرية في مؤتمرها التنظيمي الأول في عام 1977، وتعلن ميلاد الجبهة الشعبية لتحرير ارتريا.

ورغم كل تحدياتها الداخلية الحقت الثورة الارترية هزيمة ماحقة بالجيش الاستعماري الاثيوبي، ولعبت دورا مهما في سقوط النظام الاقطاعي الاثيوبي في عام 1974. وبحكم وجود فراغ سياسي في الساحة الاثيوبية حينذاك، استولى

الجيش على السلطة في أديس أبابا، وفرض ديكتاتورية عسكرية " الدرق " خلف غطاء الماركسية ـ اللينينية، هذا مما اهله على حصول دعم سياسي ودبلوماسي وعسكري ومالي من الاتحاد السوفيتي السابق ومن سائر الدول التي كانت تدور في فلكه، ولا سيما المانيا الشرقية السابقة، واليمن الجنوبي السابق وكوبا. فطبق الدرق سياسة حكم اثيوبيا وارتريا بما عرف بالرعب الأحمر. ولقد تزامن ذلك مع الإنجازات العسكرية الكبيرة التي حققتها الثورة الارترية، واحكام قبضتها على مشارف العاصمة اسمرا. وحصيلة هذه التطورات لعبت دورا كبيرا في التحاق العديد من الارتريين بصفوف الثورة، وذلك قبل شروع الدرق في شن عشر حملات عسكرية من عام 1978 لغاية عام 1986، بغية إطفاء شعلة الثورة الارترية مرة واحدة والى الابد كما كان يتشدق، وذلك بعد فشل مساعيه التي كانت تهدف الى الالتفاف على حق الشعب الارتري في تقرير المصير، واعتبار القضية الوطنية الارترية مشكلة طبقية ليس الا، لا بد من حلها في إطار اثيوبيا، من خلال حكم إقليمي ذاتي، بدعم من موسكو والعواصم الشرقية الدائرة حول جاذبيتها.

وفي خاتمة المطاف لم تفشل كل الحملات العسكرية الاثيوبية المدعومة من المعسكر الشرقي السابق في تحقيق هدفها فقط، بل تكبدت القوات الاستعمارية الاثيوبية خسائر فادحة وفاضحة في ذات الآن وعلى جميع الصعد السياسية والعسكرية ، فحررت الثورة الارترية كل ربوع الوطن، ولم تتوقف عند هذا الحد، بل انها اقتلعت نظام الدرق الي كان بمثابة كابوس جاثم على كاهل الشعب الاثيوبي من جذوره، وان قائده الذي كان يتبجح بالتهديدات الزائفة ويلوح بالشعارات المزيفة، هرب خلسة الى زمبابوي تاركا زمرته التي ارتكبت أبشع الجرائم وأنكرها بحق الشعبين الارتري والاثيوبي لمصيرها التاريخي المحتوم.

هذه مجرد صفحة من مجلدات تناولت رؤوس أقلام عملية وكيفية تحول شعلة الفاتح من سبتمبر وعلى مدار ثلاثة عقود ـ 1961 ـ 1991 ـ الى بركان جامح وكاسح استأصل النظام الاستعماري في ارتريا، ولعب دورا حاسما في اجتثاث ديكتاتورية الدرق في اثيوبيا.

29 أغسطس 2025